كيف تم التعريب

في الجمهورية العربية المتحدة

للدكتور جمال الدين الشيال

ان التعريب أنواع فهناك تعريب التعليم وتعريب الادارة ، وتعريب المصطلحات العلمية والكتب ، وتعريب المجتمع ، والبيت والسوق والشارع .

ولم تعرف مصر في تاريخها الاسلامي بعض أنواع هذا التعريب ، فلغة الادارة فيها كانت دائما ومنذ أمر عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين في أواخر القرن الهجري الاول هي اللغة العربية ، لم تتغير ولم تتبدل ولم تحل محلها لغة أخرى في أي عصر من العصور ، حقيقة لقد خضعت لغة الدواوين العربية ـ شأنها شأن أي لغة أخرى من لغات العالم ـ الى عوامل النمو والنهوض والضعف والركاكة في مختلف العصور ، وحقيقة دخلتها بعض الالفاظ والمصطلحات الفارسية والتركية في العصور العباسية والمملوكية والعثمانية ، ولكنها رغم هذا كله ظلت هي هي غلابة ظافرة لها السيادة ، تقهر كل لغة اخرى ، وتبقى وحدها صاحبة السلطان وصاحبة المقام الأول .

ولغة التعليم في المساجد والمدارس والمعاهد المصرية كانت دائما منذ دخل الاسلام مصر هي اللغة العربية لم تبدل ولم تغير ولم تحل محلها لغة اخرى اللهم الا في مرحلة قصيرة تلت الاستعمار الانجليزي ، فقد حاولت انجلترا بعد احتلالها لمصر في سنة 1882 ان تجعل التعليم في المدارس العصرية الحكومية ـ وكانت وقتذاك قليلة العدد ـ باللغة الانجليزية ، وعاشت هذه التجربة نحو عشرين عاما لقيت في خلالها مقاومة قاسية عنيفة ، فقد كان يجاور المدارس العصرية الحكومية الازهر الشريف ومعاهده تدرس باللغة العربية وترعى العلوم الاسلامية والعربية ، وكانت تجاورها كذلك مدارس عصرية حرة أنشأها الاهلون وقادة الكفاح الوطني ، وكانت العلوم كلها تدرس فيها باللغة العربية ، وكانت محاربة التعليم باللغة الانجليزية والدعوة الى احلال اللغة العربية محلها هدفا هاما من اهداف الحركة الوطنية التي كان يتولى قيادتها وقتذاك الزعماء الخالدون مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ، فلما كانت ثورة سنة 1919 وحصلت مصر على استقلالها المبتور سنة 1923 اصبحت العلوم تدرس في جميع المدارس المصرية باللغة العربية .

ومنذ انشئت الجامعات المصرية ولغة التعليم في الكليات النظرية وبعض الكليات العملية (الآداب والحقوق والتجارة والزراعة) هي اللغة العربية ، اما الكليات العلمية العملية فبعض علومها تدرس باللغة العربية وبعض آخر يدرس باللغة الاجنبية كالانجليزية والفرنسية والالمانية .

وقد التفتت حكومة الثورة الى هذا النقص ، فأمرت

بالقاء المحاضرات في كل العلوم بالكليات العلمية باللغة العربية ، وكونت لجان لتعريب المصطلحات ولترجمة الكتب الجامعية أو تاليفها وأفادت هذه اللجان كثيرا من الجهود الطويلة التى بذلها مجمع اللغة العربية منذ انشائه ، وعربت فعلا آلاف المصطلحات وطبعت عشرات الكتب في كل العلوم والفنون الجامعية ، وبدىء عام 1961 بالسنة الاولى فى كل الكليات العلمية فجعلت الدراسة فيها باللغة العربية ، وتليها في عام 1962 السنة الثانية ، وهكذا بحيث يصبح تدريس العلوم في الجامعات كله باللغة العربية بعد ثلاث سنوات .

بقيت الكتب وترجمتها الى اللغة العربية والمصطلحات العلمية وتعريبها وهذه هي المشكلة الوحيدة من مشكلات التعريب التي عرفتها مصر منذ اوائل نهضتها الحديثة في مفتتح القرن التاسع عشر ، ففي السنوات الاولى من ذلك القرن استقل محمد على بحكم مصر ، وسعى سعيا حثيثا للاخذ بالحضارة الغربية في مختلف نواحيها ، ففتح مدارس عصرية كثيرة للطب وللهندسة وللزراعة وللعلوم الحربية ... الخ ، واعترضت الحكومة في ذلك الوقت مشكلات كثيرة ، فتلاميذ هذه المدارس اختيروا من بين تلاميذ الازهر ، ولم يكونوا يعرفون غير اللغة العربية وكانت العلوم التي تدرس في هذه المدارس علوما أوربية حديثة ، وكان الاساتذة الذين يدرسونها في أول الامر كلهم مدرسين اوربيين ، وكانت اللغات التي يدرسون بها لغات أوربية – وخاصة الفرنسية – ، ومع هذا لم تأبه حكومة ذلك الوقت بهذه الصعاب ، بل احتالت للتغلب عليها بوسائل كثيرة ، فعينت عددا من المترجمين – وكانوا في معظمهم من السوريين المسيحيين الملمين باللغات الاروبية – لينقلوا الدروس عن الاساتذة الى الطلاب ، وكانت الخطة التي وضعت تتلخص فيما يأتي : –

1 – كان المترجمون ينقلون الدروس الى اللغة العربية في حضرة الاستاذ وكان الاستاذ يمد المترجم بالشروح والتفسيرات اللازمة ليسهل عليه مهمته ، لان هؤلاء المترجمين لم يكونوا على علم بالمواد التى يترجمونها في أول الامر .

2 – وليتأكد الاستاذ من حسن فهم المترجم لما قال كان يطلب اليه أن يعيد ما ترجم باللغة الفرنسية أو الايطالية .

3 – كانت هذه الدروس المترجمة تملى على الطلاب بعد ذلك فيسجلونها في دفاترهم الخاصة .

4 – كان المدرس يقوم بعد ذلك بشرح الدرس الذي أملى على الطلاب ويجيب على أسئلتهم اذا أشكل عليهم فهم بعض عناصر الدرس ، وذلك عن طريق المترجم أيضا.

5 – كان الطلبة يمتحنون آخر كل شهر فيما درسوه ، وكان الاختيار لرياسة الاقسام على أساس التفوق في الامتحانات .

كانت هذه الطريقة الوحيدة الممكنة للتدريس في المدارس العليا أول انشائها في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وطبيعي أن تظهر لهذه الطريقة عيوب ، وأن يوجه اليها النقد ، وقد أحس بهذه العيوب رجال التعليم قبل غيرهم ، فاعترفوا في خطابهم الى ديوان المدارس بأن « الدروس التي يدرسها المدرسون الاجانب الذين لا يلمون باللغة العربية كان ينقلها للطلبة مترجمون لا يعلمون شيئا عن معناها ، كما أنه لا يمكن شرحها لهم لعدم المامهم بهذا العلم ، وهذا هو السبب الوحيد في تأخر الطلبة » .

وقد اتخذت اجراءات كثيرة لعلاج هذا النقص – وخاصة في مدرسة الطب ، منها :

اولا – بدىء بتكليف هيئة المترجمين في المدرسة بترجمة الكتب الطبية الى اللغة العربية (وأول كتاب طبي مترجم الى اللغة العربية طبع في المطبعة الملحقة بالمدرسة سنة 1832) ، واذ كان هؤلاء المترجمون لا يتقنون اللغة العربية فقد عينت في مدرسة الطب طائفة من المحررين والمصححين من شيوخ الازهر ، وقد استطاع هؤلاء الشيوخ بما لهم من معرفة بكتب الطب العربية القديمة أن يمدوا المترجمين بالمصطلحات الطبية الصحيحة ، كما كان لهم فضل كبير في تقويم أسلوب الترجمة العربي وتصحيحه ، والبعد به – على قدر استطاعتهم وعلمهم – عما يشوبه من لكنة وعجمة وركاكة ، أما المصطلحات الطبية الجديدة فقد اجتهدت

الهيئتان معا في ترجمتها أو وضع مصطلحات جديدة تؤدى معناها ، ومن هؤلاء الرجال مجتمعين تكونت « اكاديمية » تكفل أمانة الترجمة وصحتها ، وأصبح للطب في خمس سنين قاموس تزيد كلماته على ستة آلاف كلمة .

ثانيا ـ الحق المترجمون تلاميذ بالمدرسة ليتلقوا العلوم الطبية ، فيسهل عليهم بعد ذلك معرفة المصطلحات وتفهم المواد التي ينقلونها عن الاساتذة للتلاميذ ، والكتب التي يترجمونها .

ثالثا ـ ورؤى أيضا أن يشجع تلاميذ المدرسة على تعلم اللغة الفرنسية فانشئت لهم مدرسة لتعليمهم هذه اللغة ، وألحقت بمدرسة الطب .

رابعا ـ بعد مضى خمس سنوات على انشاء المدرسة اختير اثنا عشر تلميذا من أوائل الخريجين ونوابغهم ، وأرسلوا في أول بعثة طبية الى أوربا سنة 1832 ، وكان لاعضاء هذه البعثة شأن خطير في التدريس بمدرسة الطب وادارة شؤونها ، وفي الترجمة والتاليف، فقد أصدر مجلس ادارة المدرسة ، ـ بعد عودة هؤلاء المبعوثين ـ لائحة تعين الاعمال التي يناط بهم القيام بها، كان منها ـ الى جانب اشتغالهم كمعيدين ومساعدين للاساتذة الاجانب ـ أن يقوموا بترجمة الكتب التي يختارها لهم أعضاء مجلس المدرسة ، وبعد الفراغ من ترجمتها ، ومنعا للشك في صحتها « يجب أن لا يطبع كتاب ما بعد الانتهاء من ترجمته قبل ان يعرض على مترجمي المدرسة ومصححيها أجمعين » .

هذا مثل مما كان يتبع في مدرسة الطب المصرية في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وعلى هذا النمط كانت تسير بقية المدارس العليا الاخرى ، بهذه الوسائل جميعا حاولت حكومة مصر في ذلك الوقت أن تنقل الغرب الى مصر لتحقق مثلها العليا في الاصلاح ، ولكنها لم تحاول البتة ان تنقل مصر الى الغرب ، بل احتفظت لها بروحها وتقاليدها ، ولغتها ، بل لقد حاولت في كثير من الاحيان أن تمزج بين الخير في العالمين ـ الشرقي والغربي ـ فاقامت النهضة المصرية الحديثة على أسس متينة صحيحة ، ووجهتها ـ منذ ذلك الوقت حتى الآن ـ الوجهة الطيبة التى أفادت منها ، والتى لا تزال تعمل للافادة منها .

بقيت ناحيتان هامتان أخريان من نواحي التعريب في مصر لابد من الاشارة اليهما لاهميتهما :

اما الناحية الاولى فتتصل بالشركات والبنوك ، وذلك أن اقتصاديات البلد في معظمها انتقلت بعد الاحتلال الانجليزي في سنة 1882 الى أيدي الاوربيين ، فأنشئت شركات وبنوك أوربية كثيرة : انجليزية وفرنسية وايطالية والمانية ... الخ ، وكانت كل شركة وكان كل بنك يستعمل في دفاتره ومراسلاته وحساباته لغة بلده ، وفي هذا اهدار لكرامة البلد وحط من شأن لغتها ، الى أن كانت النهضة الوطنية الكبرى ، وارتفعت الاصوات تنادي بضرورة تعريب هذه المؤسسات الاقتصادية ، وارتفعت أصوات معارضة أخرى تقول باستحالة تعريبها ، فهي قائمة على نظم أوربية ، وتقدم الزعيم الاقتصادي الكبير طلعت حرب ، وانشأ حوالي سنة 1926 بنك مصر ، واختار مديريه وموظفيه جميعا من المصريين ، وجعل كل دفاتره ومكاتباته وحساباته باللغة العربية فتلاشت أول أكذوبة تقول بعجز اللغة العربية عن أن تفى باغراض العصر الحديث فى ميادين المال والاقتصاد .

وبعد طفرة ثانية ، وبعد الغاء الامتيازات الاجنبية في سنة 1936 صدرت الاوامر للشركات والمؤسسات الاجنبية بأن تطبع أوراقها ومراسلاتها باللغة العربية الى جانب اللغة الاجنبية .

وبعد الانطلاقة الكبرى ، بعد تأميم قناة السويس في سنة 1956 أممت كل البنوك والشركات والمؤسسات الاجنبية ، فأصبح مديروها وموظفوها جميعا من المصريين ، وأصبحت كل بياناتها ودفاترها ومراسلاتها باللغة العربية ، أمر جوهري جاد صدر من الحكومة ، فمن كان من موظفي هذه المؤسسات الاجانب يعرف اللغة العربية بقى ، ومن لم يكن يعرفها سعى لتعلمها أو استقال وانسحب في صمت وهدوء .

واما الناحية الثانية فتتصل بالمدارس الاجنبية ، وقد كانت في مصر مدارس كثيرة من هذا النوع تتبع كل دولة وكل جنس ، فكانت هناك مدارس انجليزية

وفرنسية وامريكية وايطالية ويونانية والمانية .... الخ وكل مدرسة من هذه المدارس كانت في الواقع نقطة ارتكاز لاستعمار فكرى ثقافى خطير ، وكان وجود هذه التشكيلة العجيبة من المدارس عاملا من اكبر عوامل البلبلة وزعزعة العقيدة وانفصام عرى الوحدة في الفكر وفي الاسرة وفي المجتمع وفي الاهداف ، وكان يحدث ان يكون فى الاسرة المصرية الواحدة ابن تعلم فى مدرسة انجليزية وابن ثان تعلم في مدرسة ايطالية وبنت تثقفت في مدرسة فرنسية وبنت اخرى تثقفت في مدرسة المانية ، وكل من هؤلاء كان يكفر - بحكم تربيته وثقافته - بقوميته العربية وبالحضارة العربية ، ولا يؤمن الا بحضارة الشعب الذى تثقف بثقافته ، وذلك ان هذه المدارس كانت تدرس للتلاميذ المصريين تاريخ وجغرافية انجلترا وفرنسا وايطاليا والمانيا ... الخ بالتفصيل أما تاريخ مصر وجغرافيتها واما تاريخ الوطن العربي وجغرافيته وحضارته فكم مهمل ، لا يدرس التلميذ ولا تدرس التلميذة عنها حرفا واحدا ، بل أن مدارس الارساليات الدينية كانت تدرس للتلاميذ المسلمين الدين المسيحي .

وأدركت مصر ابان نهضتها الوطنية خطورة هذا الوضع ، فبدأت بان فرضت على هذه المدارس تدريس تاريخ الوطن العربي وجغرافيته ، وتدريس الدين الاسلامي للتلاميذ المسلمين وبلغت الوقاحة من بعض هذه المدارس أنها عارضت أول الامر ثم قبلت على مضض وبدأت تدرس هذا كله باللغات الاجنبية وبشكل مشوه مغرض ، فعادت الدولة وأمرت بان تدرس هذه المواد جميعا باللغة العربية .

ثم خطت الدولة الخطوة الطبيعية الكبرى بعد تأميم القناة ، وأصدرت اوامرها بتأميم المدارس والمعاهد الاجنبية جميعا بحيث يصبح مديروها والمشرفون على توجيه سياستها التعليمية من المصريين ، وابقت نظام التعليم - فيما عدا العلوم الانسانية من دين وتاريخ وجغرافية - باللغات الاروبية لان الدولة تؤمن بضرورة تعلم أكبر عدد ممكن من المواطنين هذه اللغات ، فهي عند ما فكرت في تأميم هذه المعاهد لم تكن تقصد الى محاربة العلم أو تعلم اللغات الاروبية ، وانما كانت تقصد ان تقضى على عوامل الانفصام في التكوين الثقافي للامة العربية ، وعلى أهداف الاستعمار الثقافي .

بهذه الخطوات جميعا تم تعريب المجتمع والثقافة والاقتصاد في الاقليم المصري من الجمهورية العربية المتحدة ، وعلى هذا النهج كانت تسير سوريا ، بل لعل هذا البلد كان أسبق من مصر في بعض خطوات التعريب ، فقد بدأت جامعة دمشق تدرس علوم الطب المختلفة باللغة العربية منذ سنوات .

على هذا الدرب سار المشرق العربي في تؤدة وثقة ، وقد قابلته صعاب كثيرة ولكنه كان يتغلب عليها دائما بالصبر والايمان وتحديد الاهداف .